قصة الحب والحياة

جرازيلا

كان لامرتين فى الثامنة عشرة من عمره عند ملمسه الحب بأنامله الناعمة ، وطاف به الشعر فى آفاق الوحى والالهام . وكانت « جرازيلا » الفتاة الأولى التى أسمعته نغمات الغرام ، وأسكرت روحه بتلك الخمرة العلوية التى تسكبها الآلهة فى ارواح الشعراء والمفكرين

فجرازيلا هى التى غرست فى فؤاد «لامرتين» زهرة الشوق والحنين . وهى التى جعلته ينطق بأرق مافى الحياة من صبابة وتذكار ، وألم ودموع !

لقد أحب دانتى بياتريس فكتب عنها الصحائف والأوراق وعشق جميل بثينة فصعد لأجلها التأوهات والزفرات ... ولكن لامرتين فى حبه لجرازيلا أرانا شيئاً خفياً لم تقع على مثله العيون

فالذى يقرأ ما كتبه لامرتين عن جرازيلا يعانق تمثال الحب ويتفهم معانى الحياة . . . لأن هناك أقوالاً إذا لم تبلل العيون بالدموع فهى تفعم النفوس بغمائم الحزن والكآبة ، ومرارة الشوق والتذكار

إن لامرتين عرف أن يسمع تلك الفتاة الساذجة البريئة تغاريد الحياة المعنوية وحفيف أجنحة الهوى . . . وأن يجعلها ترى من وراء ضباب أحلامها شجرة الحب المتعالية فى الفضاء ، ونهر الغرام الجارى بين الأرض والسماء

والذى يصغى إلى غمغمة تلك التعابير الشعرية الحنونة التى سالت على براعة لامرتين ، ترفعه العاطفة إلى جنة سحرية فيرى مواكب الأرواح هائمة فى رحاب النعيم ، وغوانى الشعر راقصة على أنات الرباب فى ضوء القمر ! !

* * *

شغف « لامرتين » بالطبيعة منذ صباه وغذى شعوره وإحساسه برقة الحب والغرام ، وعناصر الحسن والجمال ... فجاءت كتاباته صورة حية للمثل الأعلى الذى ينشده أصحاب التأمل وأبناء الخيال

ثم أحب التجول والاغتراب ليتغلغل فى صدر الطبيعة وليجنى فى حناياها تلك الزهرة القدسية الخالدة التى تملأ القلب عبيراً ، والنفس نشوة وكمالاً ... فارتحل إلى إيطاليا بلاد الشمس المشرقة والماء المترقرق ، والذكريات الزاخرة بالحياة والحرارة

وجاب أنحاءها فتعرف إلى آثار التاريخ الرومانى القديم الذى لم يمح الدهر سطراً واحداً من ذكرياته

وفى « روما » المدينة الخالدة استطاع الشاعر أن يدرس عصر النهضة درساً وافياً دقيقاً فكان يذهب فى الصباح الى نهر « التيبر » المنساب فوق رفات الدهور والأجيال ، فيجلس على ضفافه ويتطلع من ثنايا مائه إلى آماله وأمانيه التى يخبئها المستقبل . وعند ما يخيم الظلام يعود إلى مخدعه فينام راضياً مطمئناً

وهنا تشوق لامرتين إلى سماء « نابولى » الزرقاء ليشاهد فيها قبر « قرجيل » الذى كان يجد لذة فى ترديد أشعاره فذهب إليها . وفى هذه الأثناء التقى الشاعر بأحد أصدقائه القدماء فعاش معه عيشة ألفة ودعة

نابولى عند الايطاليين جنة سحرية فاتنة سكنتها أرواح الشعراء والأنبياء . . . هى غابة ابتدعتها عبقرية الله لتبقى مكمناً للفن والفكر والموسيقى ، ومأوى لكل من يريد أن يرسم أفكاره التواقة إلى المثل الأعلى ، وأحلامه الشاردة وراء أشباح الموت والحياة ! !

تأثر « لامرتين » لهذه المناظر وشعر بجاذب عاطفى فلهب

تدفعه إلى تفهم أسرارها . فان مشاهد الصيادين يتفيأون فى ظلال مراكبهم الصغيرة . . . والعاشقين يتشاكون الهوى تحت ألوية الدجى . . . والشمس المودعة تلقى نظرتها الحزينة على قمم الجبال . إن جميع هذه المناظر كانت تحرك إحساسه فينظمه شعراً لطيفاً عذباً كما تنظم القيثارة أنغامها وتهدأتها ! !

وبعد أن مرت بالصديقين أيام قليلة أحب لامرتين تلك الحياة الشعرية التى يحياها الصيادون فى مراكبهم تحت السماء الصافية ، وفوق متون الأمواج ، فتمنى كثيراً لو أتيح له أن يحيا تلك الحياة .

وشاءت الأقدار أن تحقق أمنية الشاعر ، وأن يلتقى بفتاة طاهرة تلمع فى صدرها محاسن الحب والعاطفة ، فقاده حسن الطالع إلى التعرف بصياد شيخ فى السبعين من عمره كان ينتصب دائماً قرب زورقه انتصاب الطيف بين الموت والحياة ! !

هنا اكتمل الحلم وتحقق الأمل . . .

كان ذلك فى ليلة من ليالى الصيف القمراء . . . بدا البحر فيها صافياً كمرآة العذراء فى ساعة عرسها . . . أما السماء فقد تكللت بتاج من الأنوار لتضىء العيون وتهدى القلوب . . وفى وسط هذه التأثرات مرت بالشاعر العبقري أحلام موردة تركت فى نفسه أثراً لا يمحوه الدهر .

ثم تلت هذه الليلة ليال جميلة فى زورق ذلك الصياد الشيخ !!

* * *

مات الصيف فأسرعت ربة الحقل بالرحيل لتستريح فى وادى الذكرى . ثم جاء الخريف الحزين فتناثرت أوراقُ الأشجار واعتصب جبينُ الأفق بغيمة من تلك الغيوم السوداء المنذرة بخمود جمرة الأفراح . . . وفى ليلة باردة اتفقَ الصديقان مع الصياد على سياحة فى عرض البحر فركبَ الثلاثة الزورق وساروا يداعبون الأمواج بمجاذيفهم الخشبية كأنهم فى حلم من الأحلام المزهرة . ولم تكد تمضى على ذلك ساعة حتى ثارت الأمواج منبئة بالكارثة الرهيبة . ثم أطفأت النجوم مصابيحها فاشتد حلك الظلام اشتداداً مخيفاً هو المصيبة العظمى . إلا أن الشيخ المسكين لم يستسلم إلى الهلكة فصاح بهم أن يغالبوا المنية حتى تلوى من أمامهم خاسرة مضعضعة .

وظلوا عالقين بين أشداق الموت ساعتين كاملتين حتى قذفتهم الأمواج الصاخبة إلى جزيرة تدعى « إيسكيا » كان بيت الصياد مبنياً فيها . . . وفى ذلك البيت الحقير كان يعيش الشيخ مع زوجه العجوز وحفيدته الحسناء غرازيلاّ .

لم تكن « غرازيلاّ » كسائر الفتيات . ولم تُصنع مثلهن من طين وماء . . . لأن الله حباها بجمال رائع فتان ... فعيناها سرقتا سوادهما من ظلام الليل ، وجيدها التالع استعاد سحره من عرف الزهور البيضاء ، أما قوامها الخالب فقد سكبته الطبيعة من ضياء الفجر لتبهر به عقل كل من يراها ويتأمل فى معانى حسنها وجمالها

* * *

نشأت بين الصديقين والعائلة القروية ألفة لم تلبث أن تحولت إلى محبة سماوية ، فأصبح الفريقان لا يحتملان ألم الفراق . وقد كونت هذا التقارب عاطفةٌ غريبة بين الفتاة والشاعر ، فانها أحبته عند ما ألقت عليه أول نظرة . وبعد أن درس «لامرتين» أخلاق العائلة وتبين مشاربها وأفكارها شعر بجاذب روحى مجهول يحبب إليه كل فرد من أفرادها .

وأحب أن يقرأ لهم فى إحدى الليالى رواية «بول وفرجيني» ففعل . وفيما هو يقص عليهم تلك الفاجعة المؤلمة التى صورها كاتب فرنسا الكبير « برناردين دى سان بيير » أحس بدمعة حرى تتسايل على يده ، فنظر فاذا غرازيلا تبكي جاثية عند قدميه ، وإذا الشيخ وزوجه مطرقان كأن داهية دهياء حلت فى تلك الساعة !

فكانت هذه الكآبة دليلا على رقة عواطفهم .

* * *

فى إحدى الليالى تسلم رفيق الشاعر كتاباً من أمه تسأله أن يأتى إلى فرنسا لحضور زفاف شقيقته فرافقه لامرتين إلى نابولى ، ثم ودعه وعاد إلى الفندق ليصرف فيه ليلته . غير أن لامرتين لم يكن يحس بالرابطة التى توثقه بصديقه إلا بعد أن فارقه . وعند ما أقبل الصباح كان يقاسى آلام الشوق على سريره

وعلمت « غرازيلا » بمرض لامرتين فأسرعت إلى «نابولى» مع أخيها الصغير . ولم تكد تدخل عليه وتشاهد تحوله واصفراره حتى تفجرت بالدموع وجداً ولوعة . وبعد أن جلست قرب

فراشه نزعت من جيدها أيقونة مقدسة وعلقتها فوق رأسه لتقيه من الموت . ثم خرجت متأثرة باكية تضرع إلى الله ألا يفجعها فيه ! !

مضى على هذا الحادث أسبوع كامل شفى فى أثنائه لامرتين من آلامه فعاد إلى منزل الشيخ . ولم يكد يطأ عتبة ذلك المنزل حتى أقبل عليه أصحابه يعربون له عن تعلقهم ومحبتهم وإعزازهم . وكان فى زيارتهم فتى فى العشرين من عمره مشوه البنية ، لكنه طيب الأخلاق شأن أمثاله القرويين الذين لم تفسد المدنية عواطفهم . . . وسأل الشاعر عن أمره فقيل له إنه ابن خال لغرازيلا ، وإنه سوف يكون زوجها عند ماتسمح الظروف . هنا شعر بمرارة خرساء تمزق فؤاده !

مابت الشمس نحو المغيب تاركة قبلة حرى على وهاد تلك الجزيرة الهادئة ، وبمغيبها غمرت روح الشاعر سكينة عميقة ممزوجة بالأسى الساحق . . . وما أن صمم على ترك هذه الأسرة لتنعم بأحلامها وتأملاتها حتى وقفت غرازيلا والعجوز فى سبيله قائلتين إنهما لاتسمحان له بمغادرة المنزل مادامت العائلة تعتبره فرداً منها . وظلتا تتوسلان إليه حتى رضى أخيراً .

وتسلل الحزن إلى روح الشاعر فأوى إلى حجرته ليذرف فيها دموعه . وكان عند ماتهدأ ثورة عاطفته يلجأ إلى مذكراته فيبثها حنينه وشكواه ! !

* * *

مرت على هذه الحادثة ثلاثة أشهر فعاد إلى الشاعر انبساطه الماضى لأنه استعاض عن صديقه المخلص بغرازيلا الحبيبة التى كان يقضى معها أيامه وليالية على شواطىء تلك الجزيرة الشعرية الساحرة . وهنا شاءت الحياة أن تضرم لوعة الشاعر . . . ففى ذات ليلة عاد إلى المنزل فلحظ انقباضاً مرتسما على وجهي العجوزين أما غرازيلا فكانت عيناها مملوءتين بالدموع .

تساءل الشاعر عن سبب انقباضهم وحيرتهم فقال الصياد : إن خال غرازيلا جاء طالباً يدها إلى ابنه ، ولما كان في هذا العقد سعادة للفتاة فقد أجابه الشيخ بالارتياح ، أما غرازيلا فلم تنطق بغير دموعها السحاحة .

عند ذاك أحس لامرتين بتعلقه بغرازيلا ، فأهمه كثيراً أن تخرج من ذلك المنزل ، وأن لا يراها فيما بعد صادحة بين جنباته وزواياه ، ثم دخل مخدعه يائساً وانطرح كالمحموم لشدة تأثره . . . وعبثاً حاول الرقاد .

وكانت تلك الليلة باردة جداً ، والبرق شديد اللمعان فى الفضاء ، والريح تئن كثكلى ترثي وحيدها ، والسيول تتساقط بروعة فتلقى الرعب فى القلوب . . وكان باب الحجرة يضطرب كلما هبت العاصفة . وقد خيل إلى الشاعر أنه يسمع أنيناً جارحاً ؛ وأن فماً يردد اسمه بلوعة وأسى !

وكما تبرز الدمعة من العين الباكية ثم تتلألأ على الوجه ، برز الفجر من أحشاء تلك الليلة المخيفة ، فأنار سفوح الجزيرة وأغوارها بضوئه الضعيف . فى تلك الساعة استيقظ لامرتين من رقاده . ولم يكد يسمع صراخ العجوزين والأخوين الصغيرين حتى تسمّر فى مكانه . . . ذلك لأن غرازيلا فرت إلى مكان مجهول . وهاج الحزن فى صدر الشيخ جميع آلامه فدنى من لامرتين وبيده ورقة مبللة كانت ملقاة على فراش غرازيلا ودرجا إلى الشاعر أن يقرأها له فاذا هى تحتوى على هذه الكلمات المتقطعة :

« لقد احتملت كثيراً حتى أصبحت لا أقوى على الاحتمال أقبلكم قبلة الوداع . . . سامحونى . . . أفضل أن أكون راهبة متجردة من أحلامها وأمانيها على أن أعيش عيشة الذل مع الرجل الذى لم تهبنى السماء إياه . . . ردوا الخاتم إلى ابن خالى . . . سأصلي لألفونس ولأخوى الحبيبين . . . »

ولم يصل لامرتين إلى النهاية حتى ارتعشت يده فهوت الورقة إلى الأرض . وعند ما انحنى ليلتقطها رأى عند عتبة الباب زهرة حمراء كانت تحملها غرازيلا دائماً ، ووجد بجانبها تلك الأيقونة التى تركتها فوق رأسه يوم كان مريضاً . هنا علم أن الصوت الذى كان يناجيه فى عتمة الليل هو صوت غرازيلا . . . فمضى شاكياً !

* * *

قضى الأمر وفرت غرازيلا لتدخل إلى الدير ، ولكن فرارها راش سهماً ماضياً فى قلب لامرتين . فخرج منتحباً بين الأودية والوهاد . .

وعند ما مالت الشمس نحو المغيب اهتدى إليها فى أحد الأكواخ . وما أن رآها حتى جثا بجانبها ووضع يديها بين يديه

ثم أدناها من فمه ليدفئها بحرارة أنفاسه . وبصوت متقطع خاطبها قائلا : لماذا اختبأت هنا ؟

فاعترفت غرازيلا له أنهم أرادوا أن يجمعوها بغير الرجل الذى اختارته روحها . . ثم قالت إنها لم تهب قلبها لغيره فى العالم

وأحنى لامرتين رأسه ليشكوا لها ما يكابده من يأس وحرقة فقاطعته قائلة :

« لقد صرفت ليلة أمس باكية عند باب مخدعك . وعند ما خرجت قلت فى نفسى إنى لن أراك أبداً لأنى سأسير راهبة تنقطع إلى عبادة الله على ضوء الشموع ، وفى ظلال انفرادها الطويل الملول . . ولكنى قرعت باب الدير فوجدته موصداً وهكذا رجعت إلى هذا المأوى لأقضى فيه ليلتى . ثم أشعلت المصباح أمام صورة العذراء وخاطبتها قائلة : أيتها القديسة إنى أهب حياتى بما فيها من صبوة وإغراء لخالقى . . وإذا جاء غداً ذلك الحبيب فقولى له إنى أحببته بكل ميولى وعواطفى ، وإنى هجرت العالم لأجله . . قولى له إنى ضحيت بأعز شىء لدى ، ها هو ذا شعرى الذى كان يحبه فانى أقصه . خذيه أيتها العذراء وأبقيه معك ليظل آمناً بين يديك .

وهنا نزعت منديلها من رأسها فبدت كغصن عرى من أوراقه ! !

اختبأ الليل بين خرائب الأبدية ثم بزغ الفجر معلناً قدوم الشمس ، فقدم الصياد مع عائلته ليتفقدوا غرازيلا . وعند ما شاهدوا تلك الكآبة التى ارتسمت على محياها الناضر ركعوا قربها ملتاعين ونار الحزن تأكل أفئدتهم .

* * *

عاد الجميع صامتين الى الجزيرة . وبعد أن صعدوا صلواتهم تختمر فى الفضاء الوسيع ارتموا على مضاجعهم تخفرهم هيبة الأسى ، وتظللهم أجنحة اليأس والانفعال

وسارت الأيام فى طريقها . . . فى ذات ليلة من ليالى الربيع الجميلة كان الشاعر نائماً فى حجرته فسمع قرعاً قوياً على الباب ففتحه فاذا صديقه القديم يدخل عليه قائلاً :

« أتيت لأصطحبك حالاً الى فرنسا لأن والدتك تريد أن تراك قبل موتها . فاذا لم تذهب تركت فى قلبها غصة أليمة ترافقها الى الأبدية »

أثرت هذه الكلمات فى قلب « لامرتين » . فعاوده دفعة واحدة تذكار الماضى الذي قضاه فى حضن أمه . ولما لم يحتمل جسده المكدود قوة الصدمة وقع مغمى عليه . وعند ما ثاب اليه روعه وعد صديقه بالرحيل

ثم دخل حجرته ورتب ثيابه ، وبعد أن أخذ ورقة وأفرغ عليها جميع ما تضمره روحه العظيمة ، أقسم لغرازيلا انه سيعود اليها عند ما تبرأ والدته العزيزة من مرضها . وأراد أن يودع غرازيلا قبل رحيله فمنعه صديقه . غير أن الفتاة استيقظت حينذاك فهبت مذعورة . وعندما علمت حقيقة الأمر وقعت فاقدة الرشد

تسرب داء الغرام إلى قلب « غرازيلا » فاصفرت زهرة حياتها اصفرار الوردة عندما يمسها الخريف بيده القاسية . أما لامرتين فكان يهتف باسمها فى الحلم واليقظة !

ولم تشأ غرازيلا أن تفارق الحياة دون أن تبثه أسرار فؤادها ولاعج غرامها فأرسلت إليه هذه الرسالة :

حبيبي ألفونس

يقول لى الطبيب إنى سأترك الحياة بعد حين ، فلذلك أريد أن أودعك الوداع الأخير ! آه يا ألفونس ، حبذا لو كنت قريبا منى الآن ، إذا لبقيت حية . . ولكن هى إرادة الله أيها الحبيب

إن جسدى سيضمه التراب ويبلى سريعا أما روحى فستظل مرفرفة فوق رأسك إلى الأبد . إنى أترك لك — كتذكار — لما بيننا من عهود — شعري الذي كنت تحبه وتداعبه بأناملك الجميلة فاحفظه لأن رؤيته تعيد إليك ذكرى تلك الليالى التى صرفناها معاً فى هذه الجزيرة الحبيبة التى تحن مثلى إليك

(غرازيلا)

* * *

منذ ذلك اليوم انطبعت على محيا « لامرتين » كآبة خرساء وقطنت عينيه اللطيفتين أشباح اليأس والحنين . وكان كلما شاهد جنازة فتاة يخونه الصبر والتجلد فيرتمي على الأرض باكياً منتحباً ! أما روحه فقد اتشحت بوشاح الحزن والكآبة حتى تفصدت بهذه القصة الرائعة المؤثرة التي فتحت لمؤلفها الشاعر العبقري مغالق الخلود .

(البرازيل) يوسف البعيني